

المؤتمر الدولي الثامن عشر للوحدة الإسلامية

المنهج النبوى في بناء الوحدة سماحة الشيخ حسن موسى الصفار كيف يمكن تحقيق الوحدة السياسية والاجتماعية في مجتمع يعيش انقسامات حادة على أساس قومي أو ديني – مذهبى، أو مناطقى أو قبلى؟ هل يكون ذلك بالمرادنة على تذويب الهوى^١يات وإلغاء مشاعر الانتماء الخاص؟ أو بغلبة طرف وإخضاعه لسائر الأطراف؟ أم أن هناك أساليب وخيارات أصوب؟ بإمكاننا أن نقرأ في الإنجاز التاريخي الذي تحقق على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، بقيام الدولة والمجتمع الإسلامي الأول، تجربة ناجحة رائدة على هذا الصعيد، حيث يجمع المؤرخون أن مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام كان ممزقاً لا يجمعه كيان، ولا يلم شمله نظام، كانوا قبائل متباينة، في أجواء علاقات مضطربة، غالباً ما تفضي إلى العداء والاحتراب، ومن يقرأ أيام العرب، وهو ما يطلق على معاركها وحروبها، تدهشه تلك المعارك الضارية، التي تنساب لأسباب، ففي كتاب (أيام العرب في الجاهلية) الذي اشتراك في إعداده ثلاثة من الباحثين، عرض لعشرين الحروب الداخلية بين القبائل العربية، فمعارك القبائل القحطانية فيما بينهم بلغت عشر معارك، وبين القحطانيين والعدنانيين عشر معارك، وفيما بين قبائل ربعة ست معارك، وما بين ربيعة وتميم خمسة عشر معركة، وبين قبائل قيس إحدى عشرة معركة، وبين قيس وكناة عشر معارك، وبين قيس وتميم سبع معارك، وبين قبائل ضبية وغيرهم خمس معارك، وهناك معارك أخرى متفرقة.([1]) ويبدو أن هذه الحروب التي عرضها المؤلفون، هي ما تناقلت كتب التاريخ والأدب أخبارها، أما سائر المعارك وهي كثيرة فقد تجاوزوا ذكرها، جاء في مقدمة الكتاب: «وقد اقتصرنا على الأيام المشهورة التي وصل إلينا تفصيل حوادثها، وذكر أسبابها، ورواية أشعارها وقصائدها، أما الأيام التي لم يقع في الكتب إلا ذكر عنواناتها مجردة من الحوادث وذكر الأسباب، فقد جاوزها اختيارنا... روى صاحب كشف الظنون وغيره: أن أبا عبيدة قد ألف كتاباً صغيراً حوى خمسة وسبعين يوماً (معركة)، وأخر كبيراً جمع فيه ألفاً ومائتي يوم، وأن أبا الفرج الأصفهاني ألف كتاباً جمع فيه ألفاً وسبعيناً يوماً...»([2]). كان ولاء العربي أولاً وأخيراً لقبيلته، مما يعني انصرافه فيها، وتغريبه بقوتها وأمجادها، وشدة تجاه ما يخالفها. وقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين أنه «حين تقرأ الشعر الجاهلي تشعر - غالباً - أن شخصية الشاعر اندمجت في قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص، وأنك لتتبين هذا بجلاء في معلقة عمرو بن كلثوم، وقل أن تعثر على شعر ظهرت فيه شخصية الشاعر، ووصف ما يشعر به وجداً، وأظهر فيه أنه يحسّ لنفسه بوجود مستقل عن قبيلته»([3]). في هذا المجتمع المتنوع قليلاً، والذي تسوده نزعة التطرف في الولاء

للقبيلة، ويعيش حالة الصراع والاحترباب بين قبائله، بعث الله تعالى نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فاستطاع خلال أقل من ربع قرن من الزمن، أن يبني من تلك القبائل مجتمعاً متماسكاً، وكينا ناً موحداً، يحمل للعالم مشروعه حضارياً متقدماً. حقاً إنه إنجاز عظيم لا نظير له في تاريخ البشرية. وهو ما لفت نظر الدكتور (مايكل هارت) من أمريكا، عند تأليفه لكتاب عن المئة الأولى في تاريخ البشرية، فوضع شخصية النبي محمد على رأس القائمة كأهم شخصية في تاريخ البشر، وكتب عن هذا الاختيار قائلاً: «إن اختيار المؤلف لمحمد ليكون على رأس القائمة التي تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمي في مختلف المجالات، إن هذا الاختيار ربما أدهش كثيراً من القراء، إلى حد أنه قد يتغير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقاد المؤلف: أن محمداً كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي».⁽⁴⁾ فكيف استطاع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تحقيق هذا الإنجاز العظيم؟ وما هي الخطة التي اعتمدتها لتوحيد ذلك المجتمع المتناثر الأشلاء؟ الهوية المشتركة في حالة الانقسام الاجتماعي تتضخم الهوية الخاصة عند كل طرف من الأطراف، فهي حدود الدفاع عن ذاته، وخدق مقاومته، وعنوان وجوده، ومن أجل أن يتوحد المجتمع، لابد أن تنخفض درجة الغليان في الهويات الخاصة، لصالح هوية مشتركة يتمثل فيها وجود كل الأطراف، وترى من خلالها ذاتها بدرجة متماثلة. وهنا لا يمكن أن تقوم هوية أحد الأطراف بهذا الدور، لأن بروزها يستثير تحدي بقية الهويات، وإعلانها يعني غلبتها واعتراف الآخرين بالهزيمة أما منها. فإذا كان المجتمع منقسمًا على أساس قومي، فلا يمكن أن تشكل إحدى قومياته إطاراً لوحنته، وتصبح هوية جامدة له، وكذا الحال لو كان متعدد الأديان أو المذاهب، فإن أحدها لن يقوم بدور الجامع المشترك. فلا بد من عنصر مشترك بين أجزاء المجتمع، يتم إبرازه والتركيز عليه كهوية جامعة، أو تنمو حالة فكرية سياسية جديدة تتمحور حولها فئات المجتمع، وتصبح هدفاً مشتركاً وإطاراً جاماً. وهذا ما تحقق على يد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن خلال دعوته الإسلامية المباركة، والتي أصبحت حالة سريعة النمو تخترق أوساط مختلف القبائل، وتبشر بتوجه جديد يحفّز نحو أهداف سامية، ويتبني قيمًا إنسانية حضارية، تتجاوز أناانية الأفراد، وعصبية القبائل، وعبقية الحياة. لقد أخذ الإيمان موقعه في نفوس أبناء تلك القبائل المتصارعة، وتمحور حوله ولاؤهم، وتوثق له انتماؤهم، على حساب الولاء القبلي، والانتفاء العشاري، فأصبح إطاراً جاماً وهوية مشتركة، يفخر به الجميع بدرجة متساوية على اختلاف قبائلهم وتفاوت مكانتها وقوتها. ثقافة الوحدة حالة الانقسام والفرز الاجتماعي، تحفر آثارها في النفوس والمشاعر، بتصحيم الذات الفئوية، والحط من شأن المنافسين، والتعبيئة تجاههم، كما تنتج ثقافة تبرر التمايز، وتكرّس المفاصلة، وقد تدفع إلى سلوكيات عدائية، وممارسات استفزازية. وحين يحصل تطلع

للوحدة في المجتمع، لا بد من ثقافة جديدة تعالج آثار ثقافة الانقسام، وتواجه مفاعيلها النفسية والسلوكية. لقد كان المصراع والتنافس القبلي في الجزيرة العربية، دافعاً لتربيه الأبناء على الفخر والاعتزاز بانتماهم للقبيلة، وتنمية مشاعر التميّز وأحساس الأفضلية على الآخرين، وهذا ما تناصر به قصائد شعرائهم، وخطب زعمائهم. إن الحماسة والفخر هو من الأغراض الأساسية في الشعر العربي الجاهلي، حيث يتفنن الشعرا في تمجيد قبائلهم وإظهار مكانتها، وفي شعر عمرو بن كلثوم نموذج صارخ لمثل هذا التوجه، حيث يقول في إحدى قصائده: ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملأه سفيننا ونشرب إن وردنا الماء صفوًا ويشرب غيرنا كدراً وطينا إذا بلغ الطعام لنا وليد تخر له الجبار ساجدانا لنا الدنيا ومن أضحت عليها ونبطش حين نبطش قادرانا والوجه الآخر لهذا اللون من الأدب الجاهلي هو أدب الهجاء، حيث يبالغ الشعرا في الخط من شأن القبائل المنافسة لقبيلتهم، ووصفها بأسوأ النعوت، وأقبح الصفات. وجاء الإسلام ليوحد تلك القبائل، فاهمت بمواجهة تلك الثقافة التمييزية السائدة، باجتناث جذورها النفسيّة والفكريّة، ومقاومة آثارها السلوكية، حيث أكدت آيات القرآن الكريم، على الأصل الواحد لبني البشر: {الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحْدَةٍ} ([5]), ونسفت كل مبررات التفاضل الزائف بين الناس، إلا على أساس كسبهم الاختياري للصفات الفاضلة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِيلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّمَا أَكْرَمَنَا عِنْدَ الْلَّهِ أَتْقَانُكُمْ} ([6]). وشدد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطاباته وأحاديثه على مبادئ الوحدة بين أبناء المجتمع الإسلامي، وشن حرباً ضارية على الأفكار والتصورات الجاهلية، بالتفاخر بالأنساب والأحساب، أو التفاضل بالانتفاء القبلي أو العرقي. كقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية». ([7]) وروي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): أنه خطب يوم فتح مكة فقال: «أيها الناس ليبلغ الشاهد الغائب: إن الله قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية، والتفاخر بما ينالها وعشائرها، أيها الناس إنكم من آدم وآدم من طين، ألا وإن خيركم عند الله وأكرمكم عليه اليوم أتقاكم وأطوعكم له». ([8]) وعن جابر بن عبد الله الأنباري قال: خطبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم». ([9]) وفي إحدى الغزوات حصل سوء تفاهم بين مهاجري وأنصار فصاح أحدهما يا للمهاجرين ونادي الآخر: يا لأنصار، فلما سمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أدان هذا المنطق قائلاً: «ما بال دعوى الجاهلية؟ دعواها فإنها منتنة». ([10]) بالطبع فإن المرفوض هو تفعيل

الانتماء القبلي سلبياً، وتضخيمه على حساب الولاء للمبدأ، دون أن يعني ذلك رفض الاعتراف بالانتماءات، والإقرار بالكيانات القبلية في مضمونها الإيجابي. الشراكة الفعلية لا شيء يحقق وحدة المجتمع كالشراكة الفعلية بين أطرافه في البناء واتخاذ القرار وإدارة الأمور، فذلك هو ما يشعر الجميع بمصلحتهم المشتركة في الحفاظ على كيان الوحدة، ورفض ما يمسّ بها، كما يجسد واقع المساواة في الحقوق والواجبات، أما إذا استأثرت بعض الأطراف بذلك، فإن الآخرين سيتملّكهم الإحساس بالغبن والطلاوة، وسيدفعهم شعورهم بالإقصاء والتهميش إلى القيام بردود فعل ليست في صالح الوحدة واستقرار المجتمع. إن إقصاء أي طرف يحرم المجتمع من فاعليته وعطائه، ويفتح ثغرة في جدار وحدة المجتمع وأمنه. ومن مفاخر الإسلام العظيمة سبقه إلى إقرار مبدأ المشاركة الشعبية، والشراكة الاجتماعية، وفي وقت كانت ترث في المجتمعات البشرية في ظل أنظمة الاستبداد والعنصرية والطبقية البغيضة. كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يمارس الشورى على الصعيد الاجتماعي العام، ليدلّي كل مسلم برأيه، كبيراً كان أو صغيراً، من الأحرار أو الموالي، من المهاجرين أو الأنصار، ومن أية قبيلة كان، وحتى العناصر غير العربية أخذت موقعها دون أي تفاوت، بل احتل بعضها موقعاً متميزاً بجدراته كمهيب الرومي وسلمان الفارسي. وفي مجال الوظائف والمهام القيادية، كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يسندها إلى الأكفاء المؤهلين من مختلف القبائل، ولو أُعطي هذا الجانب من السيرة النبوية حقه من الدراسة، لتحقّق لنا وللبشرية روعة تعاليم الإسلام، وعظمة القيادة النبوية. إن قائمة أمراء الجيوش والسرايا، وكذلك السفراء المبعوثين للملوك والزعماء، والشخصيات التي عينها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في مواقع القضاء والمسؤوليات الدينية، هذه القوائم حين نفحصها نرى التنوع في الانتماء القبلي والمناطقي لأشخاصها. وبعض التعيينات كانت تشكل صدمة وإثارة للرأي العام الذي كان يعاني من رواسب الحقبة الجاهلية، لكن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان حازماً في تحقيق مبدأ الشراكة واحترام الكفاءة. وفي يوم فتح مكة أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بلالاً الحبشي الأسود، الذي كان عبداً يباع ويُشتري في مكة، وأوقع به أسياده القرشيون صنوف الإهانة والتنكيل، حتى أغروا صبيانهم وسفهاءهم أن يقتادوه بحبيل ليُسخروا منه ويؤذوه، هذا الرجل اختاره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليكون أول مؤذن على ظهر الكعبة، مما أثار حفيظة الكثير من القرشيين، حتى قال أحدهم لصاحبه: لقد أكرم الله أباً أبي أن مات وألا يكون سمع هذا !!! وكان الحارث بن هشام وصفوان بن أمية قaudin فقال أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الحبشي !! فقال الآخر: إن يكرهه الله يغيّره. ([11]) وحينما عين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) زيد بن حارثة وهو عبد اشتراه حكيم بن حزام ثم وهب له عمتة خديجة بنت خويلد، فوهبته لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، عينه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

وسلم) على رأس جيش المسلمين إلى الروم في غزوة مؤته إلى جانب جعفر الطيار وعبد الله بن رواحة، اعترض البعض على هذا التعيين، فرد^٣ عليهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم عين ولده الشاب أسامة ابن زيد على رأس آخر بعث عسكري له (صلى الله عليه وآله وسلم)، وجعل تحت إمرته كبار المهاجرين والأنصار. قال ابن سعد في الطبقات: لما كان يوم الإثنين لأربع ليال من صفر سنة إحدى عشرة للهجرة، أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الناس بالتهيؤ لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا أسامة ابن زيد فقال: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش... فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبو بكر الصديق، وعمر ابن الخطاب، وأبوعبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص... فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين؟ فغضب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غضباً شديداً، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس مما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله! وأيم الله إن كان للإمارة لخليقا وإن ابني من بعده لخليق للإمارة...([12]) نهج الوحدة والحضارة هذا النهج الوحدوي الذي اعتمدته رسول الله في بناء الأمة، بتركيز الهوية المشتركة، وهي الإسلام، لتكون فوق سائر الهويّات والانتماءات، والتي لم يتنكر الإسلام لوجودها، كالقبيلة والوطن والقوم، وإنما حارب التوجهات السلبية فيها، وضح^٤ في المجتمع الجديد ثقاقة وحدوية، تعالج آثار المفاسلة القبلية السائدة، وكذلك الحرص على تحقيق الشراكة الاجتماعية بين مختلف الأطراف في البناء واتخاذ القرار وإدارة الأمور.. هذا النهج هو ما يؤدي إلى الوحدة الحقيقية، وهو ما يؤهل المجتمع للرقي الحضاري. وما تنتجه الآن المجتمعات الغربية المتقدمة، من اعتماد الوطن كهوية مشتركة، ومن احترام التنوع في مجتمعاتها، وتجريم الطرادات العنصرية، والممارسات التمييزية بين المواطنين، وتحقيق الشراكة والمشاركة عبر النظام الديمقراطي، إنما يمثل إدراكاً لأفضل سبل التقدم والحضارة التي سبق إليها الإسلام بقرن، ومع تلافي الكثير من التغيرات والسلبيات التي تعاني منها الحضارة الغربية. وال المسلمين اليوم هم الأولى بمثل هذا النهج السليم، النابع من تعاليم دينهم، والمنسجم مع تاريخهم وثقافتهم الأصلية.

([[1]]) جاد المولى: محمد أحمد وآخرون، أيام العرب في الجاهلية. ([2])المصدر السابق ص: ك، ل. ([3])أمين: أحمد، فجر الإسلام ص 59. ([4])هارت: ما يكل، دراسة في المائة الأوائل. ([5])سورة النساء: آية 1. ([6])سورة الحجرات: آية 13. ([7])السجستاني: الحافظ أبو داود، سنن أبي داود، حديث رقم 5121. ([8])المجلسى: محمد باقر، بحار الأنوار، ج 70 ص 293.

([9]) المتنقي الهندي: علي، كنز العمال، حديث رقم 8502. ([10]) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم 2584. ([11]) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3 ص 235. ([12]) المصدر السابق، ج 2 ص 190.